جامعة محمد خيضر بسكرة

كلية العلوم الاجتماعية –أنثروبولوجيا–

المستوى : سنة ثالثة أنثروبولوجيا عامة

المقياس: أنثروبولوجيا الدين والمقدس

المحاضرة رقم (02) **مفهوم حرية الاعتقاد الديني**

مفهوم حرية الاعتقاد الديني في الإسلام يتبادر إلى الأذهان السؤال عمَّا إذا كان الإسلام أقرَّ بحرية الاعتقاد للناس، ولكنَّ الواقع أنَّ الإسلام لا يقرُّ بحرية الاعتقاد في العقيدة على الإطلاق، بل يأمر الناس بالالتزام بالعقيدة الحَسَنة الصالحة التي مِن شأنها الدعوة إلى الأخلاق الحميدة ونبذ كلُّ السلوكيّات السلبية التي لا تقبلُها النفس البشرية، إضافة إلى إنَّ الإسلام يوجب على الإنسان توحيد الله والإخلاص في العبادة إليه، والالتزام بهذه العبادة بقناعة تامة، أعظم الذنوب هو الشرك والكفر، قال تعالى في سورة النساء: "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا" (4)، ويقول تعالى في سورة الإسراء: "وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ" (5). وكلُّ هذه الآيات القرآنيّة تدعو إلى الإيمان بالله وحده وعدم المساومة في موضوع إفراد الله في العبودية، وهذا ما دعت إليه السنة النبوية الشريفة أيضًا، فيما روى أنس بن مالك –رضي الله عنه– قال: "لمَّا توُفِّيَ رسولُ اللَّهِ –صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ–، ارتدَّت العربُ، قالَ عمرُ: يا أبا بَكرٍ، كيفَ تُقاتلُ العرَبَ؟ فقالَ أبو بَكرٍ –رضيَ اللَّهُ عنهُ–: إنَّما قالَ رسولُ اللَّهِ – صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ– أُمِرتُ أن أقاتلَ النَّاسَ حتَّى يَشهَدوا أن لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وأنِّي رسولُ اللَّهِ، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتوا الزَّكاةَ، واللَّهِ لَو مَنعوني عَناقًا مِمَّا كانوا يُعطونَ رسولَ اللَّهِ لقاتَلتُهُم عليهِ، قالَ عمرُ –رضيَ اللَّهُ عنهُ–: فلمَّا رأيتُ رأيَ أبي بَكرٍ قد شَرحَ، عَلِمْتُ أنَّهُ الحقُّ" (6)، والله تعالى أعلم. (7)

أسس المعتقدات الدينية

1– الأفكار الحاضرة في تكوين الأديان

ازدرى العلمُ تحليلَ الأديان زمنًا طويلًا مع أن تاريخ البشرية يظلُّ غيرَ مفهوم بغير تاريخ آلهتها.

ومنذ عهد قريب، فقط، أخذ العلماء يُعْنَوْن بذلك التحليل، غير أن ما طبَّقوه من الشرح والتفسير لم يُسْفِر عن شيء سوى نتائجَ هزيلة.

Wondershare PDFelement

ولا يزال الاطلاع على تكوين الأديان ناقصًا لِما كان من القول بإمكان درسها اعتمادًا على النصوص كما تُدْرَس الحوادث التاريخية الأخرى، مع أن الواقع هو أن الأديان المُزَاوَلة هي غير الأديان التي تُعَلَّم في الكتب، وسنرى في فصل آخر أن الدين المُنْتَحَل لا يَلْبَث أن يتحول وإن ظَلَّتْ نصوصُه ثابتة لا تتغير.

إذَنْ، لا يكون لدينا سوى علم قليل بالأديان إذا ما اقتصرنا على تَبَيُّنِهَا من الكتب، وبالمعابد والتماثيل والنقوش والصُّوَر والأقاصيص نَعْرِف الوجه الذي يفهمها به أتباعها خيرًا مما نَعْرِفه بالكتب.

ولا يبالي الكُتَّاب الذين يبحثون في الديانات بتَحَوُّل هذه الديانات، فتُبْصِر انتحالَهم لنظرياتٍ مناقضة لكلِّ ملاحظة.

ومن ذلك أنك تَجِد أساتذةً علماءَ يَعُدُّون البُدَّهِيَّة (البوذية) ديانةً بلا إله، مع أنها أكثر الأديان آلهةً على ما يحتمل، وعلى ما كان من مجادلة مؤسس هذه الديانة في وجود الآلهة؛ حيث تصادَم هو وهذه الآلهة عندما سَبَح في تَأَمُّلاته تحت شجرة الحكمة، فقاوم وعيد أمير العفاريت مارَا وناهَضَ إغواءَ بنات الآلهة أَبِسَرَا، فمن يَقُل بوجود دين بلا إله يقترفْ خطأً نفسيًّا جَمْعِيًّا أساسيًّا.

وما يدور حول تكوين الأديان من الفرضيات كثيرُ التغيُّر، وظَلَّت الفرضية اللغوية أَكْثَر تلك الفرضياتِ شيوعًا حينًا من الزمن، وتقول هذه الفرضية: إن حوادث الطبيعة، كالشمس والقمر والنار ... إلخ، كانت أشياءَ مُشَخَّصَةً؛ وذلك لِما كان من عَدِّ التعابير المجازيَّة التي تدلُّ عليها أمورًا حقيقية، ومن ذلك أن كانت أُسْطُورَةُ الإلهَة سِيلِينِه التي عانقت إنْدِيمُيون في غار لَاتْمُوسَ إشارةً إلى القمر وهو يداعب بأشعته الأمواجَ التي تَغيب بينها الشمسُ.

ومن العبث أن نَقِفَ عند هذه النظرية المتروكة تمامًا في الوقت الحاضر، ولا تلوح النظرياتُ التي حَلَّت محلَّها أمتَن منها مع ذلك.

إن ما أَتَى به علم وصف الإنسان من المباحث، عن طُوطَمِيَّة الحُمْرِ (البُورُوج) لإيضاح الضَّحِيَّة، وعن طَبْوِيَّة البُولِينِيزِيين لإيضاح ما في الحياة الاجتماعية من وَسْوَاسٍ ومحظور، يُلْقِي — بالحقيقة — نورًا ضئيلًا على المسائل الدينية ولا سيما الأساطير اليونانية، وإن قوانين الأمم المتمدنة، حتى العاداتِ الاجتماعيةَ البسيطة، التي لا أَصْلَ دينيَّ لها، مملوءةٌ بالمُحَرَّمات المشابهة لِما في طَبْوِيَّةِ الزُّمَرِ الفطرية، وإن ما في طَبْوِيَّة من هم على الفطرة من طابعٍ مقدس ناشئٌ عن أن جميع شئون الحياة العادية عند هؤلاء — ومنها مآكِلهم — ذاتُ مَسْحَة دينية.

ومن النظريات ذاتِ الحُظْوة الكبيرة في الوقت الحاضر تلك النظريةُ التي تقوم على عَدِّ الأديان حوادثَ جَمْعِيَّةً غايتُها بعضُ الواجبات التي أصبحت مقدسة، ومن الواضح أن جميع الأديان تكتسب صفةً جَمْعِيَّة ذاتَ حين فتستلزم بعضَ الواجبات بحكم الضرورة، غير أن من الصعب أن يُجادَل في أن الأديان كانت إبداعًا فرديًّا في بدء الأمر، وأظهرُ ما تبدو هاتان الظاهرتان المتعاقبتان — الفرديةُ ثم الجَمْعِيَّة — في الأديان التي مَثَّلَت أعظمَ دَوْر: في دين بُدَّهَة (بوذا) ودين محمد على الخصوص.

ويتجلى عيب النظريات الحاضرة حول تَوَلد الأديان في بحثها عن عِلَّة واحدة للأديان مع تعددها، ثم في استخفافها بالعوامل النفسية مع أن هذه العواملَ عناصرُ جوهريةٌ في تكوين الأديان.

وتؤدي معرفة هذه العوامل إلى إيضاح أصول الحوادث الدينية التي تبدو في البشر من خلال التاريخ، وهي تُسَوِّغ قولَنا بالقرابة الوثيقة بين جميع الأديان.

وتظلُّ أهرام مصرَ، وذُرَى المآذن، وأبراجُ الكنائس، ومناقشاتُ علماء اللاهوت، ووَجْدُ الكاهن أمام الهيكل، وحماسةُ المؤمنين، وطُوطَمِيَّةُ الهَمَج وطَبْوِيَّتُهم؛ أمورًا لا تُدْرَك عند إغفال القُوَى العاطفية والدينية التي تعينها، وهذه القُوَى إذ كانت واحدةً لدى جميع الأمم كانت ذاتَ مظاهرَ متشابهةٍ بحكم الضرورة.

2-العناصر الدينية والعاطفية في المعتقدات الدينية :

خلودُ الآلهة في التاريخ يكفي لإثباته ملاءمةَ هذه الآلهة لاحتياجات النفس الثابتة، وإذا حَدَثَ أن البشر غَيَّروا آلهتَهم، في بعض الأحيان، فإنهم لم يستغنوا عنها قطُّ، والناسُ شادوا القصور للآلهة قبل أن يقيموها للملوك، وما احتياجُ الإنسان الراسخُ إلى الدين إلا كمناحي طبيعتنا الأساسية.

والروحُ الدينية عنصرٌ جوهريٌّ من عناصر الأديان، وهي ذات شأنٍ عظيم في تكوين المعتقدات الدينية أو السياسية.

والروحُ الدينية هي ركنُ مختلفِ الأديان، وتَجِد من أوصافها المشتركة — لهذا السبب — مخافةَ الأمرِ الخفيِّ، والأملَ في الأمر الخفيِّ، وعبادةَ الأمر الخفيِّ.

أَجَلْ، لم تؤدِّ الروح الدينية إلى غير أجوبة خادعة عن مسائل الحياة والكون، بَيْد أن هذه الروح سلكت بالإنسان طريقًا جديدة فقادته إلى المعارف التي نعيش اليوم بها بعد جهود دامت عِدَّةَ قرون.

وليست الروح الدينية الأساسَ الوحيدَ للمعتقدات الدينية، فلهذه المعتقدات دعائمُ من العناصر العاطفية أيضًا، ومن بين هذه العناصر نذكر الخوفَ والرجاء والاحتياج إلى التفسير على الخصوص.

والخوفُ هو أكثر تلك المشاعر تأثيرًا على ما يحتمل، وإلى الخوف يعزو لُوكْرِيسُ ظهورَ الآلهة.

وخوفُ الإنسان أمام القُوَى الهائلة التي يُحِسُّ إحاطَتها به أمرٌ طبيعيٌّ كرجائه في نَيْل حمايتها بالصلوات والهبات، ومخافةُ القُوَى الطبيعية المتحولةِ إلى آلهة متشابهة بعض التشابه والأملُ في استمالتها من المشاعر العامة عند الشعوب، فالجميعُ ساروا كما سار المكسيكيون بعد زمن، فهؤلاء المكسيكيون إذ كانوا يجهلون الخيول عبدوا فرسانَ الإسبان، من فوْرِهم، وقتما بدا هؤلاء الإسبان لهم حاملين أسلحتهم النارية قاذفين الصواعق بها.

ولا يبدو الخوفُ والرجاء في الأديان الابتدائية وحدَها، بل يَبْدُوان أيضًا في أديان أمدن الأمم، فما كانت لتَقُومَ للنصرانية قائمةٌ بغير الخوف من نار جهنم والأمل في نعيم الجنة.

والشروحُ السابقة — وإن كان يُدْرَك بها أصل المعتقدات الدينية — لا تَصْلُح لتفسير تكوين مختلف الأساطير، فكيف ظهر جُوبِيتِر وأَبُولُون وڤِينُوس ودِيَانا وكيف حدثت مغامراتُ هؤلاء؟ لا يمكن العلمَ أن يجيب عن ذلك لِما كان من دخول عامل الخيال المستقل عن كلِّ منطق عقليٍّ في اختلاق تلك الآلهة الوهمية.

Wondershare PDFelement

وليست بمجهولةٍ درجةُ بَسْطِ الخيال للحوادث وتشويهه لها، والرُّؤَى والأحلامُ إذ كانت مَنْبَتًا للخيال ومَوْكِبًا له؛ فإنه يُفْسِد الوقائع التي قد تكون حقيقةً في بدء الأمر.

والأساطيرُ هي — كمُعْظَم الحماسيات والأقاصيص — مما ظَهَر في كلِّ زمن، ونذكر منها الأُوديسة، ورواية ألف ليلة وليلة على الخصوص.

والأساطيرُ، مع ذلك، لم تَتَكَوَّن إلا في قرون بما كان من إضافاتٍ وتَحْشِيات وتحريفات متتابعة، والأساطيرُ — إذ أُدِيمَت بالأحاديث الشعبية — اكتسبتْ ثباتًا عظيمًا بالتدريج فكانت أصلَ الشعائر المعقدة التي تراعيها الأمم المتمدنة والأمم المتوحشة، ومن ذلك أن هوپيس الكولورادو عانَوْا كثيرًا في اتِّباع شعائرِ ديانةٍ تقول بأن عالَم ما تحت الأرض آهِلٌ بموجودات جامعة لشكل الوعول والأفاعي فَتَمْلِكها امرأةٌ على شكل العنكبوت فتَنْسِجُ هذه المرأة السُّحُبَ التي يَسْقُط منها المطر.

وجميعُ الأديان مفعمةٌ بالأقاصيص المختلفة من أولها إلى آخرها، ومن هذه الأقاصيص مغامرةُ ذلك الفارس الملحد الذي أراد مَلْءَ برميلٍ صغير بماء يَنْبُوعٍ ثم بماء نهر ثم بماء بحر فَيُبْصِرُ الماءَ يَفِرُّ منه في كلِّ مرة، ووجب أن يكون هذا الفارسُ كثيرَ الشك؛ لِما كان من تعاقب تلك المعجزات أمامَه لِيُثَبِّتَ إيمانَه.

حتى إن الكتب العلمية القديمة نفسَها مَحْشُوَّةٌ بالأقاصيص العقيمة التي هي ثَمَرَة الخيال المَحْض، فتَجِدُ في كتب التاريخ الطبيعيِّ التي أُلِّفَت في عهد لويس الرابعَ عشرَ، مثلًا، أنه يكفيك لتنال دودَ قَزٍّ أن تُغَذِّيَ بقرةً بورق التوت، وأن تقطع عِجْلَها إرْبًا إرْبًا، وأن تَدَع هذه القِطَعَ تَعْفَن حتى يَخْرُجَ منها دُودُ قَزٍّ كثيرٌ، ومما تراه في تلك الكتب أن بُرادَة قَرْنِ الأيِّل تُسَهِّل الوَضْعَ.

وبجانب تلك العناصر النفسية يُمَثِّل عامل الاحتياج إلى التفسير شأنًا مهمًّا في تكوين الآلهة.

وإذا عَدَوْتَ الأزمنة الحديثة لم تَجِد حوادثَ طبيعية، فكلُّ حادثة كانت تُعْزَى إلى عزائم الآلهة.

فأجدادُنا إذ كانوا يَعْرِفون المبدأ القائل بأن لا معلولَ بلا عِلَّة، وكانوا يجهلون تسلسل السُّنَن الطبيعية لم يُعَتِّموا أن افترضوا وجودَ موجوداتٍ خارقة للعادة خَفِيَّةٍ قادرة خلفَ الحوادث مسببةٍ لها.

وكان تَدَخُّل تلك الموجودات يَكفي للردِّ على ما يُمْلِيه حبُّ الاطلاع في الإنسان من الأسئلة الكثيرة التي كان العلمُ غيرَ قادر على الجواب عنها، فحَدَث ما كان من تأليه جميع قُوَى الطبيعة، فكانت الآلهة تُسَيِّر الشمسَ وتُنْضِج الثمرَ وتُرْسِل الصواعق، وما كانت تفسيراتٌ كهذه إلَّا ذات نَفْع عميم في الأزمنة التي لم يَسْطِع البشر أن يَتَمَثَّل غيرَها.

ومن بين العوامل النفسية في تكوين الأديان نذكر حبَّ البعث في عالَم آخر.

وتتجلَّى الرغبة في الخلود في أقدم الديانات حيث يُرَى بقاء طَيْف الموتى بعدهم، بَيْدَ أن الحياة بعد الممات لم تظهر أمرًا مرغوبًا فيه على الدوام، فقد قَصَّ أوميرسُ في الأوديسة أن أُولِيسَ نَزَل إلى جهنم ليشاور تِيرِيزْيَاس فلاقى أشيلَ، وحاول أن يُعَزِّيَه بموته، فأجابه طيف هذا المجاهد بقوله: «تعزيتُك باطلة، فأُفَضِّل أن أظلَّ على الأرض عَبْدًا لأفقر فَلَّاح على أن أكون حاكمًا لقوم من الأشباح.»

والنصرانيةُ هي التي وَكَّدَت أمر الحياة الآخرة أكثر من غيرها، فكانت الجنة والنار عاملَيْن عظيمين في نجاحها.

وتُعَدُّ تلك المبادئ خياليةً في أيامنا، ولكن الرغبة في الحياة بعد الممات تظلُّ قويةً في قلب الإنسان، وفي هذه الرغبة سِرُّ قوة المذهب الروحيِّ الذي يُعَلِّل أَتباعَه بأملٍ في حياة ثانيةٍ.

ومن دواعي الأسف أن العلم لم يكتشف، بعد، ما يُسَوِّغ القول بالحياة الآخرة، ولا يُرَى — مع ذلك — أيُّ العناصر من طبيعتنا ما يُرْجَى له الخلود أي القَرَار.

قال مِتزلِنْك: «من أيِّ شيء يُؤَلَّف ذلك الشعور بالذات الذي يجعل من كلِّ واحد منا مركزَ العالَم، أي النقطةَ الوحيدة التي يُؤْبَه لها في المكان والزمان؟ ليست هذه الذات، كما تبدو لنا عند التفكير في تعاقب اضمحلالها، رُوحَنا ولا جسمَنا ما دامت الروح والجسم أمواجًا تجري وتتجدد بلا انقطاع، وهل الذاتُ أمرٌ ثابتٌ غير الصورة والجوهر المُتَحَوِّلَيْن على الدوام، أو غيرُ الحياة التي هي عِلَّة الصورة والجوهر أو معلولُهما؟ حَقًّا إنه يتعذر علينا إدراك الذات أو تعريفُها أو بيان مَقَرِّها، ونحن، إذا ما أردنا اسْتِبَار غَوْرِها، لم نَجِدْ غيرَ سلسلة من الذكريات أو غيرَ سلسلة من الخواطر المختلطة المتحولة المرتبطة في غريزة الحياة، ولم نَجِد غير مجموعة من عادات إحساسنا وغيرَ انعكاسٍ شعوريٍّ أو لا شعوريٍّ للحوادث المحيطة بنا، والخلاصةُ أن ذاكرتنا هي أثبتُ شيء في سَدِيمِنا ...

وليس مما نبالي به أن يَعْرِف بَدَنُنَا أو جوهرُنا — في الأبدية — ضروبَ السعادة والمجد أو أن يعاني أروع التحولات وأعذبَها فيصيرَ زهرًا أو عطْرًا أو جَمَالًا أو نورًا أو أثيرًا أو كوكبًا، فمما لا مراء فيه أنه يغدو ذلك، فيجب أن نبحث عن موتانا في الفضاء والضياء والحياة، لا في مقابرنا، وليس مما نبالي به أيضًا أن يزدهر ذكاؤُنا حتى يختلطَ بِكُنْه العوالم ويدركَه ويسيطرَ عليه، فمما نعتقده أن هذا كلَّه لن يؤثر فينا، ولن يَسُرَّنا، ولن يَصِلَ إلينا ما لم ترافقنا ذكرى بعض الحوادث التافهةِ تقريبًا، فتكونَ شاهدةً على تلك السعادات التي لا تخطر على قلب بشر.»

إذَنْ، من الخير أن نَعْدِل عن الأمل الفَتَّان في المحافظة على ذاتنا في عالَم آخر، وهذه الذات هي التي لا نحافظ عليها في هذه الحياة الدنيا منذ الوِلادة إلى الممات لِما يعتورها من تَغَيُّر دائم.

وحياةُ ذرارينا هي عنصر الدَّيْمُومة الوحيدُ الذي يمكن الاعتماد عليه، فهؤلاء الذراري يَحْمِلون في نفوسهم أشباحَ ألوفِ الأجداد كما نَحْمِلها في نفوسنا، ويَبْدُو هذا الخلودُ غيرَ شخصيٍّ مع الأسف، فلا نكترث له كثيرًا، فمن أَجْل ذلك نرى من الحكمة سيرَ عِطاشِ الأمل من المؤمنين إذا ما حافظ هؤلاء المؤمنون على آلهةٍ تَعْرِض عليهم ما تَقَرُّ به عيونُهم من حياة شخصية مقبلة.

والعناصرُ النفسية التي ذكرناها في غُضُون هذا المطلب، كتأليه قُوَى الطبيعة والخوف والرجاء والخيال والاحتياج إلى التفسير وحبِّ الخلود بعد الموت، إذ كانت عواملَ أساسيةً لجميع المعتقدات فإننا نَجِدُها في أشدِّ الأديان اختلافًا، ونُبْصِرُ بها كثيرًا من الأوصاف المشتركة في تلك الأديان.

المراجع :

1–مقال جو كارتر، كاتب متميز في إئتلاف الإنجيل ،النسخة الأمريكية ،كما يعمل كراع لكنيسة ماكلين بولاية فيرجينيا الأمريكية.

2–ديانة،" www.marefa.org" أطلع عليه بتاريخ 05–03–2019 ، بتصرف.

3-دين (معتقد)،www.wikiwand.com،أطلع عليه بتاريخ 05-03-2019 بتصرف.

4-النساء الآية 36

5-الإسراء الآية 23

6-الراوي: أنس بن مالك،المحدث:الألباني،المصدر:صحيح النسائي،الجزء أو الصفحة: 3094، حكم المحدث:حسن الصحيح.

7-هل أقر الإسلام الحرية في العقيدة ؟" www.binbaz.org" أطلع عليه بتاريخ 05-03-2019، بتصرف

8-غوستاف لوبون،حياة الحقائق، ترجمة عادل زعيتر(1949)،صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام 2014.

9-معلومات عن تاريخ الأديان على موقع: universalis.fr رابط الموقع الإلكتروني:

PS://www.universalis.fr/encyclopedie/religion-l-histoire-des religions.

معلومات عن تاريخ الأديان على موقع : vocabularies.unesco.org رابط الموقع الإلكتروني:

http://vocabularies.unesco.org/thesaurus/concept305